الفصل السابع عشر

وانتهى النبأ إلى خديجة، كما تنتهي هذه الأنباء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى، ظاهرًا خفيًّا، وواضحًا غامضًا، يُلقى إليها ويُستر عنها، تنبأ به وترد عنه، فتبتهج له نفسها وتستحي مع ذلك من أن تتحدث فيه، ويمتلئ له قلبها غبطة وسرورًا، ويفرض عليها الأدب مع ذلك أن تتكلف الكآبة والحزن كلما ذكر لها، وأن تعرض بوجهها إعراضًا كلما همَّ أحد أن يشير إليه من قريب أو بعيد، وأن تفرَّ منه فرارًا إذا كان الحديث فيه إليها صريحًا جليًّا، على أن صديقتي وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار، قد آثرتني بما كانت تؤثرني به في كل شيء من هذه الصراحة الساذجة الحلوة! فلم تخف عليَّ ما كان يملأ قلبها من فرح وغبطة، وما كان يغشى نفسها من قلق وإشفاق، وما أكثر ما تحدثت إليَّ وما أكثر ما تحدثت إليها في أمر الخطبة والزواج، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التي لا تحصى ولا تستقصى! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعما نعرف وما لا نعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته وثروته! وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومضينا مع الخيال! وما أكثر ما فصَّلنا الأمور تفصيلًا، وأطلنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر، فتحدثنا عن الثياب التي ستشترى، وعن الحلي وعن الأثاث، وأقمنا القصور وأتقنا إقامتها إتقانًا!

وأنا في هذا كله أجاري صديقتي مجاراة يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول، حتى لم تشك لحظة في أني أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديمًا في أمر اللعب، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس والقراءة والاستظهار، بل نحن نتحدث فيما سيكون غدًا أو بعد غد حين يتم هذا الأمر، وحين تستقر خديجة في دارها وتصبح ربة بيت، ونتحدث في الدرس الذي لا بد من أن نمضي فيه، وفي القراءة التي لا نستطيع أن ننصرف عنها؛ ونرتب أمرنا على أني سأنتقل مع خديجة إلى حيث تكون، وسأشاركها